

إطلاق "مؤتمر بيروت"

24 أيار 2012

فندق حبتور هيلتون

مداخلة السيد ريمون رشيد صفير

أمين عام جمعية م.أ.م

تُطرح في العالم منذ فترة تساؤلات حول الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المعتمدة. ولا شك في أنّ الأزمة العميقة التي نمرّ بها هي السبب. كما تعود إلى الأذهان أقوالٌ نبويّةٌ لبعضهم، كقول مالرو Malraux : "يكون القرن الواحد والعشرون دينياً أو لا يكون!"

قال لي صديق في Antibes في فرنسا عام 1990، حين كان مديراً لـ CEREM (مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية المتوسطة): "مات مسخ الشيوعية، لكننا لا نعرف أيّ مسخ سيخلفه...".

يُمكن لقساوة رأس المال أن تُعطيَ الجواب. يحاول عالم بدون قيمٍ أخرى غير المال، أن يستبدل الوسيلة بالغاية. والمال وسيلة رهيبية، وعندنا في لبنان مثل يقول: "السلاح بيد الضعيف يجرح". فالقضية إذاً، هي أن نعرف إن كانت لدينا القدرة الأدبية أن نضبط الغنى والثروات ونخضعها، بدل أن نخدمها؟

لست سياسياً، ولا أعلم إن كانت السياسة تستطيع الإجابة. أنا صناعي ولي خمس وأربعون عاماً من الخبرة المهنية خصوصاً في أوروبا، حيث يُسيطر صراع البقاء والنمو. ولكي أحتلّ في مجال عملي المرتبة الأولى في فرنسا والثانية في أوروبا، تطلّب منّي ذلك أن أجاهد خلال عشرات السنين، مع فرق متضامنة تماماً فأعطيتهم القليل، وتعلّمت منهم الكثير. لذا أريد إذاً أن أتكلّم عمّا أعرف، وعمّا اكتسبته بالخبرة بشأن المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات والغاية الإنسانية للاقتصاد.

البدايات

كنتُ في الخمسينات والستينات أرى مهندساً كبيراً يتجول متفاخراً بشهادته، وكنا نسمّيه "المنظّم". في الواقع راح البحث العملائي بعد الحرب العالمية الثانية، يُظهر شيئاً فشيئاً فعالية التنظيم الحديث في المؤسسات. ولكن ما لبثت أن استبدلتُ نعمة التنظيم هذه بالمعلوماتية.

وعشتُ لاحقاً عصرَ المعلوماتية الذهبي، فكنتُ بين أوائل حاملي تلك الشهادة. وكانت دوماً للمتخصّص في المعلوماتية الكلمة الأخيرة في كل شيء وبين الجميع. ومع ذلك ما لبثت المعلوماتية أيضاً أن استهلكتُ، وبدل أن تبقى الهدف، أصبحت أداة لمعالجة المعلومات.

ثم عشت عصر مقياس نوعية ISO 9001 و 9002 . فأصبحت منذ أوائل التسعينات في فرنسا، أول مُجاز في مجال عملي وفق تقدير ISO ، وعرفت المتخصص التقني الذي لم يكن يريد أن يتكلم او يتعاطى معي كمدير عام. ثم طُبعت الأمور واستهلكت النوعية فأصبحت أداة لفعالية الإنتاج.

ثم عشتُ عصر الإنترنت وتقنيات المعلومات الجديدة والاتصالات. لا بل أسست الـ "EuroMaster" الثاني في فرنسا لـ NTIC لتأهيل متخرجين عاطلين عن العمل. ووجد خمس وسبعون في المئة من هؤلاء عملاً لهم حال تخرجهم.

إلى أن وصل أخيراً مقياس "المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات" ISO 26000. وهو اليوم يلفت أنظار كثيرين، ومثل أي بدعة جديدة يجذب أضواء الإعلام.

لكن في الواقع، كثير من مكونات هذا المعيار الجديد تطبق حالياً في مؤسساتنا الغربية. خصوصاً الـ CHSCT "لجان صحة وسلامة وشروط العمل" التي تطبق في فرنسا منذ عام 1941. ونمت قواعدها الأساسية شيئاً فشيئاً، وامتدت لتتطال الأوضاع النفسية والأخلاقية...

مديرون في العمل

جمعت UNIPAC منذ عام 1931 أصحاب مؤسسات مسيحيين يفكرون ويعملون بوعي إيمانهم. وأصبحت تضم اليوم ستة عشر ألف مدير في ثلاثين بلداً.

في عام 2000 قام صديقي Pierre LECOCQ الرئيس الحالي لـ UNIAPAC - وكان سابقاً رئيس أرباب العمل المسيحيين في فرنسا - بجمع اثنين وثلاثين تجمعاً مسيحياً حول العولمة.

وبعد أربع سنوات من التفكير والحوار أصدر "كتاب أبيض من أجل أرض قابلة للسكنى". ولما كان لي شرف المشاركة في هذا المؤلف القيم، أردت أن أترجمه فأعني بمحتواه العالم العربي. وأرسلت من الكتاب المعرب أكثر من ألف وسبعمائة نسخة شخصية إلى رؤساء الوزراء والسفراء العرب في العالم. فكان ثناؤهم لافتاً.

ويشير هذا الكتاب إلى أن العولمة وفق منظورنا، تنبّه إلى أربعة محاور أساسية: البيئة، الهجرات، تكوين الثروات والحوكمة. وكان عام 2004 يحذر العالم من أزمة حصلت عام 2008!

ولاحقاً تركّز تفكير الـ UNIAPAC بتوجيه من Pierre LECOCQ حول النواحي العملية لـ (RSE) (المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات). وقد طبع منذ حوالي 4 سنوات دليل عملي لتبني الـ RSE وتطبيقها. وبتشجيع من Pierre LECOCQ أيضاً أردت ترجمة هذا الكتاب. فقدّم له سيادة المطران غي- بولس نجيم وفضيلة الشيخ محمد التّقري. وقد وجهته شخصياً إلى ألفين وسبعمائة مسؤول عربي من رؤساء وزراء ووزراء ورؤساء الجامعات العربية في العالم. وهنا أيضاً توالفت عبارات الشكر والثناء بشكل كبير.

وبالرغم من كل ما حصل، لا تُشكّل الـ RSE (المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات) سوى مرحلة نحو تحقيق الإنسان في العمل في سبيل خدمة الإنسانية.

لقاءات وتأسيس

بعد أن رافقت في فرنسا على مدى اثنتين وعشرين سنةً الـ EDC (المقاولون والمديرون المسيحيون)، وبعد أن أعجبت بتقدّم تفكيرهم الإنساني وتساؤلاتهم التي طبعت حياتنا كمديرين غربيين، أردت أن يستفيد منها بلدي لبنان حيث ولدت، كما أردت في المقابل، إطلاعهم على الإدراك المميّز الذي ينشأ من العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين. وقد سبق أن أدرك يوحنا بولس الثاني دور لبنان (الرسالة) جيداً، فكتب:

"من وجهة نظر الإيمان والمحبة، لا يمكن أن يقتصر الذهاب إلى الآخر على إبلاغه ما فهمناه من الرب، بل يقوم أيضاً على أن نتلقّى منه الخير والحق اللذين أعطي له أن يكتشفهما."

وبعد أن خيّرت سعادة التزاوج الفريد بين حضاريتين وديانتين، عندها وبتشجيع من صديقي Pierre وجدت لزاماً عليّ العمل بالمبدأ القائل: "يجب على من يعرف ويستطيع، أن يفعل". وهكذا كنت بدأت بتأسيس EDC في لبنان، فشجعتني صديقي Pierre، أن أوّسس "م أم" (ملتقى إسلامي مسيحي) بمساعدة رفيقي بسام طرية والشيخ محمد النقري. فتبلور من خلال اجتماعات "م أم" شيئاً فشيئاً، محوراً مهمّاً:

- تضاؤف القيم الموجّهة للعمل في الديانتين المسيحية والإسلامية. فالديانتين تشدّدان بالتناغم على عدّة مبادئ أساسية، مثلاً: العمل يتفوق على التأمل، مساعدة القريب هي الفضيلة الحقيقية، المال هو وسيلة وليس غاية إلخ...
- يرافق الفراغ الروحي المتزايد في الغرب، الرفاهية المادية والتنظيمات الاجتماعية التي تحميها، والتي في حين تحمي الجسد والروح تتجاهل القلب والنفوس. فيسير كلّ شيء كما تدور عربة متقنة الصنع بلا نتيجة.

فأصبح واضحاً أنّ على الشرق أن يملأ هذا الفراغ بثقافته الإسلامية - المسيحية. فأخذ "م أم" والتربة اللبنانية الخصبة والفريدة معناهما الكامل.

وهكذا تقوم حالياً تجربة فريدة، وهي التنقيب الحثيث في القرآن الكريم ونهج البلاغة والحديث الشريف عن أفكارٍ يمكن أن تقود عمل المديرين، وتقربهم من الفكرة الاجتماعية للكنيسة. وهكذا تتكشف لنا كنوز مهمة، راسمةً لِنقاءاتٍ محتملة لإدارة الأعمال في المستقبل.

فُلُنَسِرُ مَعَا

يجب طبعاً أن نتقدّم كي تتغلّب هذه المبادئ العامة. لكننا نأمل أن نؤثر ليس فقط في المعايير التي يتمّ بناؤها، بل أيضاً في أساليب الحوكمة التي تُبني العولمة.

هذا هو الدور الذي تحاول UNIAPAC و"م أم" أن تؤدّياه. وهذا هو الدور الذي يريد لبنان أن يلعبه.

نحن مؤمنون على كرز فرید نتأمله غير مبالين: وهو الموالفة بين ديانتيْن تُشكّلان أكثر من نصف البشرية. هذه الموالفة هي فريدة لأنه ليس هنالك في العالم مكان يتقاسم فيه المسيحيين والمسلمون ليس فقط الحقوق والواجبات نفسها، بل أيضاً، الشعور بالأخوة والوحدة في الإيمان والقدر.

هذه الرسالة التي يريد أيضاً مؤتمر بيروت إعلانها للعالم. لا تستطيع الغاية الإنسانية للاقتصاد أن تنمو، إلا عندما تتزاح رسالة الأخوة والموالفة من تحت المكيال، لترتفع وتُنير العالم كله.

لذلك لا بدّ من مساعدتكم. عاونونا في تحضير حدث مؤتمر بيروت، لأنه يُشكّل الصلاة الجماعية الحقيقية، التي يمكن أن تساهم في بناء عالم عادل يحتلّ فيه الاقتصاد مكانه الحقيقيّ في خدمة الإنسان. ولا بد أيضاً من مساعدتكم المباشرة، ومساعدة أصدقائكم الذين ستستفرونهم من دون شكّ، ومساعدة مؤسساتكم أيضاً التي بإمكانها أن تشجّع هذا الحدث.

شكراً نعمت، شكراً محمد، شكراً نبيل.

وأيضاً شكرنا الكبير لأصدقائنا السّنة عَشْر ألفاً في الـ UNIAPAC الذين يتقون بنا نحن المديرين اللبنانيين، وشكرنا للبنانَ أجمع.

شكراً Pierre!

ونشكر معالي وزير الخارجية الذي استقبلنا ووعدنا بمساعدة السلك الدبلوماسي على بث هذا الحدث عالمياً لتشجيع رجال الأعمال والفكر على المشاركة الفعلية في تحضير الحدث وإنجاحه.

وأخيراً تصاعدياً نشكر فخامة رئيس الجمهورية لمنحه رعايته وحضوره للمؤتمر.

شكرنا المسبق لكم جميعاً، ولُيباركنا الله...